

حمزة يعبر بحر المجاز

د / حسن الوراكلي *

تسلل حمزة من فراشه الدافئ، في جوف ليل بارد الطقس، شديد الظلمة ... كانت الريح في الخارج تصر صريراً .. كالعواء!

وكان البرق يومض في أعماق قرية (أجدير) ...

يجبس حمزة دمه، وتند عنه آهة حرى، والمذيع يواصل تقديم الأخبار، (هذا وقد عاد الرئيس البوسني للمطالبة مرة أخرى، بوجوب رفع حظر بيع الأسلحة للبوسنة والهرسك، حتى يتمكن البلد من صدّ العدوان الصربي والكرواتي على أراضيه، وعلى سكانها المسلمين. ومن جهة أخرى نقلت وكالة (فرانس بريس) عن مصدر موثوق في الحكومة الفرنسية أن الرئيس (ميتران) أكد في ندوة صحفية مساء أمس، بعد اختتام مؤتمر الدول الناطقة بالفرنسية كلياً أو جزئياً، ومن ضمنها بعض الدول (الإسلامية)، أن بلاده لن تتراجع عن موقفها في قضية الحظر على بيع الأسلحة للبوسنة والهرسك. وأوردت الوكالة أن الرئيس الفرنسي قال للصحفيين بالحرف «إننا لن نسمح بقيام دولة إسلامية في أوروبا».

تشعل شرايين حمزة بالحرائق، ويكبر في حناياه الإحساس بالمأساة المهولة، التي يعانيها مسلمو البوسنة والهرسك، وهم يواجهون حرب تصفية عرقية شرسة، يشنها عليهم، ليس الصرب والكروات وحدهم، وإنما الغرب الصليبي برمته، يستهدف بها اجتثاث الوجود العقدي والعربي والحضاري للمسلمين من أرض أوروبا..!

يدفع هذا الإحساس بدمعتين

صبراً يا شامة صبراً فإنه لا يضيعكما ... ثم ودعها والحزن يملأ جوانحه لفراقها، وفراق ولده الوحيد... ونزل الدرج، ومضى في الشارع الطويل المؤدي إلى محطة الحافلات.

ومع إسفار الصباح، انطلقت الحافلة، تطوي الطريق الجبلي الوعر، في اتجاه الشاطئ، الذي بات حمزة الليالي ذوات العدد يحلم بالعبور منه إلى العدو الأخرى! وعلى جانبي الطريق، كانت أشجار الصنوبر تفرش الأرض ببسط سندسية خضراء، تعبق الأجواء بروائحها العطرية...

يثبت حمزة في أذنيه، ساعتي راديو صغير، ثم يثبت مؤشره على محطة إذاعة (سرايفو)... تجحظ عيناه، ويعلو الحزن محياه، وهو يُنصت إلى المذيع يقول (دخلت القوات الصربية فجر اليوم ثلاث قرى في شرق البوسنة، وقتلت عدداً من سكانها المسلمين العزل، ودمرت بالمدفعية الثقيلة دورهم ومنازلهم...)

إنهم يستهدفون اجتثاث
الوجود العقدي للمسلمين
في أوروبا

توضاً حمزة ثم فرش السجادة، وقام طويلاً، وركع طويلاً، وسجد طويلاً، ودعا كثيراً ... فلما فرغ من صلاته خفّ إلى حجرة النوم واقترب من فراش ولده، يُلقِي عليه نظرة مفعمة بالحب، ثم انحنى يطبع في رفق، قبلاً حارة على وجنتيه، وشفاته تتمتان بالدعاء له ... استدار وخطا خطوتين، ثم تلفت ينظر إليه بعينين دامتين .. كان الألم يعتصر قلبه اعتصاراً؛ لكنه، مع ذلك، لم ينل من جلده وثباته.. وهناك عند باب الشقة كانت زوجة (شامة) تقف شاحبة اللون، دامعة المقلتين.. كانت تدرك يقيناً أن ليس ثمة قوة يمكن أن تحول بين زوجها وبين ما اعتزمه؛ غير أنها في هذه اللحظات الحرجة، لم تجد ما تقول له، غير ما قالته له مرة وأخرى، تحاول به أن تثنيه عما عزم عليه؛ لكنه في كل مرة كان يرد على قولها برّد واحد لم يتغير، حتى حفظته عن ظهر قلب!

قالت له:

- وظيفتك يا حمزة .. وولدتك البراء، وأنا .. لمن تتركنا؟

فرد عليها في نبرات تنم عن إيمان عميق:

- لا الوظيفة.. ولا أنت، ولا الولد أحب إليّ من الله ورسوله .. إليك عني، فوالله لأمضين لأمر ربّي، وإليه أكلكما ...

(*) رئيس قسم الأدب العربي بكلية الآداب في تطوان، ويعمل الآن أستاذاً للدراسات العليا في جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

هذا بحر المجاز العظيم القدر

في الأبحر.. ملء البصر والفؤاد

مغلوبتين إلى عيني حمزة، ثم لا يملك نفسه، فيجيش بالبكاء... تلفت إليه رجل يجلس بالمقعد المحاذي لمقعدته، وسأله في إشفاق باءٍ «ما بك يا ولدي؟» نظر إليه حمزة من خلال الدموع «كان الرجل في نحو الأربعين من عمره، على بسطة في الجسم، ومثلها، على ما يبدو من هندامه في المال... لم يرد علي سؤاله، وهمس إلى نفسه «يسألني الرجل عما بي.. آه، لو درى لعذر، ولو وعى وأدرك لبكى مثل بكائي، وربما أمر منه.. آه لو درى ما يحيق به وبأهله وقومه ويحرق بدينه من أخطار وكوارث...!»

تثب إلى مخيلة حمزة صور «من زُود الفعل عند بعض من كان يحضر دروسه الوعظية، في مسجد (حومة البلد) حين كان يحدثهم عن معاناة المسلمين على يد أعدائهم الصليبيين، في مختلف البقاع، وخاصة في أرض البوسنة والهرسك، ويُسَمِّعهم من أقاصيص المجاهدين في تاريخ المسلمين، وبين لهم فضل الجهاد، ويحثهم عليه بطريق غير مباشر، حين يقرأ عليهم قوله تعالى في نبرات نفاذة: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لَدُنْكَ ولياً وأجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً﴾ كان يلمح في وجوه بعضهم الكآبة والحزن، وكان يرى أعين بعضهم تفيض من الدمع، وكان يقرأ على ملاحظهم جميعاً ما يؤكد له تجاوبهم معه فيما يندبهم إليه، ويحثهم عليه، فلما دعاهم إلى التبرع لمساعدة المجاهدين لم يتخلف أحد منهم، حتى عم (جرDAQ) الحال، الذي لا يكاد يجد ما ينفق على نفسه وذويه، أبى إلا أن يكون من السَّاقِين، إلى تقديم نصيبه في المساعدة والتبرع!

مرة أخرى تنهال على مسمعه أخبار إذاعة (سرايفو) كالحمم، توقد النار في السويداء، وتؤجج الجمر في الأطواء «لا تزال القوات الصربية تحاصر مدينة سرايفو وتشن عليها هجوماً عنيفاً بالدبابات والمدركات. ويذكر أن عدد الذين سقطوا من المسلمين في

الأيام الثلاثة الأخيرة خلال معارك المواجهة الضارية بينهم وبين الصرب ارتفع إلى خمسة آلاف وسبعائة شخص! وفي (موسكو) صرَّح مسؤول رفيع المستوى أن روسيا ستستخدم حق (الفتيو) في التصويت على مشروع رفع الحظر عن بيع الأسلحة لجمهورية البوسنة والهرسك».

يغرق حمزة في بحر لجي من الأحزان.. ويغرق كل ما حوله في متاهة بلا قرار..!

والخافلة لا تزال تغذ به السير.. تعاني الصعود في طريق مرتفع، ثم تتحدر منها لتعود إلى ارتقاء أخرى أشد وأنكى...

يحدث حمزة نفسه «هل قدَّر على المسلمين أن يلحقوا أحزانهم ويغصوا بأوجاعهم وهم راضون مطمئنون؟ هل نصب معين الشعور بالعزة والكرامة في نفوسهم، ورَضُوا أن يكونوا في الأذلين؟ أهو الحرص على الحياة والتثبث بأذيالها؟.. حقاً، ما تركت أمة الجهاد إلا ضربها الله بالذل. صدقت يا رسول الله، وأي ذل أخزى وأنكى من هذا الذي ضرب المسلمين حين رأوا سبيل الرشاد ولم يتخذوه سبيلاً!..»

فجأة تنقش سحابة الكآبة عن محيا حمزة، حين يرسل نظرة من نافذة الخافلة فتكتحل عيناه من بعيد، بشاطئ البحر الذي طالما حلم بالوقوف عنده، والعبور منه،..

تهلل وجهه والجراح جهرات في الحشايا،!

انشرح صدره والآلام أشواك في الحنايا،!

وما هي إلا لحظات حتى كان حمزة يقف على الشاطئ،، تمتلئ رثاه برائحة البحر، ويتبلل وجهه برذاذ الموج...

ساءل البحر..

ساءل شطه والثلج عما وعيا من

أخبار السلف للخلف...

استمع له وأنصت..

قال البحر: «من هنا كان عبورهم.. امتطوا صهواتي المصطخبية، وعبروا غير هيَّابين ولا وجلين... من هنا عبر (طريف) و(طارق) و(موسى) و(يوسف)... أسرجوا الأفراس وخاضوا بها لججي، أعزة على الكافرين، أذلة على المؤمنين.. هذه سبيلهم.. وفي سبيل الله ما لا قوا».

غمرت حمزة نشوة وفرحة..

هذا بحر المجاز العظيم القدر في

الأبحر... نصب العين وملء البصر..

والسمع! إنَّه يصيخ فيسمع...

وإنَّه يحذق فيرى..

تتوالى المشاهد أمام ناظره..

ها هو ذا يرى (أبا زرة طريف بن مالك) تشرق أساريه بنور الإيمان وهو يتقدم سريته المجاهدة إلى الفلك، الذي سرعان ما يشق طريقه وسط موج المجاز المصطخب، في اتجاه العدو الأخرى...

وها هو ذا يرى (طارق بن زياد)، وعليه من ربِّه سكينه ووقار، يتفقد جموع المجاهدين، الذين انتخبهم خليفة المسلمين، لحمل راية التوحيد إلى الجزيرة، من الأبطال المغاوير العرب والبربر.

وها هو ذا يرى الحشود المجاهدة، يستبقون إلى السفن، كما يستبق المصلون الصفوف الأولى في بيوت الله...

وها هو ذا يسمع أصوات التكبير والتهليل، ترتفع مدوية إلى عنان السماء، وتتردد أصدائها مجلجلة تحت الماء.. وفوق الماء!

يتلفت يمينه ويتلفت يسرة...

صوت مهيب ينبعث من الأعماق.. لم يدر حمزة أمن أعماقه هو ينبعث الصوت أم من أعماق البحر:

قصة قصيرة

التوصيات. وكان من بينها التوصية بوجوب رفع الحظر عن بيع الأسلحة للبوسنة والهرسك...!) يهمس حمزة إلى نفسه (صبيحة في واد.. يا مسلمي (البوسنة والهرسك) إنكم أضيع من الأيتام!..

تلتهم الغيمة السوداء فوق المجاز بومضات برق خاطفة...

تلتهم الكآبة الرابضة على نفس حمزة بإشراقات أمنية.. كالنيزك!

تفجّر السماء فوق المجاز بهاء منسكب...

تفيض عينا حمزة بدمع غزير

ثم .. يشخص بجميع حواسه، وهو يحلم بالعبّ من تبع الحياة السرمدي!

في صباح اليوم التالي استغرب زملاء حمزة من تأخره، وكانوا يضربون به المثل في الانضباط والحرص على الحضور إلى الإدارة!

تقدم النهار..

اتنصف النهار..

لم يأت حمزة..!

تداول زملاؤه (أمر) غيابه..

قال أحدهم: (لعله مسافر إلى القرية لحاجة طارئة مستعجلة).

وقال آخر: (لعله سافر في مهمة إدارية كلفه بها الرئيس الجديد).

وقال ثالثهم: (كيف يتغيّب فجأة من لم نعرف أنه تغيب عن العمل قط؟).

وقال الرابع: (لعل الرجل مريض.. لن يقعد به عن المجيء إلا المرض..)

وأدلى الجميع بدلوه في موضوع (غياب) حمزة، إلا خالداً فلم ينس بيت شفة.. لقد كان هو الوحيد الذي يعرف أن حمزة عبر المجاز في طريقة إلى البوسنة والهرسك!

حمزة يهجر بحر المجاز

ما انطوى عليه ضميره في قديم الأزال والآباد؟ هل أنصروا صُروح العدل التي أقاموا، وصروح المجد التي شادوا، رفيعة العماد، شاذخة البنيان كيف تمهات بمعاول الأحفاد، حين دبّ إليهم داء الأمم؟! «

يتنهد حمزة من أعماقه .. وتتحدّر الدموع من مقلتيه..

وكمن يفيق من غيبوبة فيعتريه الدهش، مما تقع عليه عيناه من حوله طفق حمزة يفرك عينيه، ويطوف ببصره في جنبات البحر الهادئ الصامت، فلا تقع عيناه على شيء مما كان يراه قبل برهة على شاطئه، وفي عرضه، وعن سفح جبله...

«أين المراكب..؟ أين الأبطال..؟

أين أنتم يا فرسان المجاز..؟

يا طرف ..

يا طارق..

يا موسى..

يا يوسف..

هياً.. أقبلوا..

هياً.. هلموا..

هياً.. احضروا يا فرسان المجاز..

للمجاز!

قد آن أوان الأوبة.. والحضور!

طال الانتظار .. وعيل الصبر ونفذ!

المجاز، في غيابكم، موحش قفرا،

صامت حزين!

أين أنتم يا أجباءه..؟

أولم تسمعوا، مثلما سمع موجه

والأعماق، صرخات المستضعفين من النساء

والولدان والرجال الذين لا يستطيعون حيلة..؟

يقطع عليه جبل تفكيره صوت

المذيع يلوّك هذا الخبر (اختتم أمس مؤتمر

وزراء خارجية الدول الإسلامية أشغاله بقراءة

الجبل على هري

البصر بادي السكينة

كأنما يواصل الإطراق

«ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا عسى أن يكون الله متاً قد اشترى نفوساً أموالاً وأهلاً بجنة إذا ما اشتهدنا الشيء فيها تيسيرا ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدر»

وها هو ذا يرى السفن وقد انطلقت بجند الله تختال عائمة فوق لجج المجاز وفي إثرها أسراب الطير المحومة...

ثم ها هو ذا يرى ألسنة النار تلتهمها.. فإذا انقشعت سحائب الدخان تراءى له، مرة أخرى (طارق) متألق الأسارير يزجي جند الله إعداداً لخطّة (أرخص متاع فيها النفوس)!

ثم.. ها هو ذا يراهم ويسمعهم يُعاهدون ربهم، بين يدي قائدهم، ألا يغلّوا، ولا يغدروا، ولا يمثلوا، وألا يقتلوا الشيوخ الفانين، ولا الولدان، ولا أصحاب الصوامع، وألا يقطعوا شجراً ولا يخرّبوا عامراً... وألا يتحرفوا وألا يولوا الأدبار.. وأن يثبتوا ويصبروا في الغدوات والروحوات...

يهمس حمزة في نفسه، والدمع يبلل لحيته الكثة السوداء «أخلق بهم أن يطمئنوا غداً عند ربهم من كل محذورة».

يحجف دمه..

ويعاود النظر إلى الجبل، وهو منه على مرمى الحجر، فيترأى له بادي السكينة، كأنها يواصل الصمت والإطراق مفتكراً فيما مضى وغير، وفيما حلّ وحضراً يتنهد حمزة، وترسم أمارات الحسرة والاكتئاب على وجهه.. «أين منك يا جبل الفتح؟ بل الفتحين هاتيك الأيام المتألقة من أيام الله المشهودة؟ أين منك هاتيك الحشود من المجاهدين الصادقين المحتسين، استرخصوا ما عزّ وغلا، في سبيل التمكين لكلمة الله، ورفع إصر الجاهلية وجورها عن خلقه، فلم يطؤوا منك يا جبل الفتح موطناً إلا كتب لهم به عمل صالح.. أين مثل آبائي هؤلاء؟ ماذا دهى أصلاب الرجال وأرحام النساء؟! لكنّ.. يا ترى. هل هُتكت لأبصار هؤلاء الفاتحين الميامين أسجاف الغيب، فتكشف لأبصارهم